

بناء الشخصية الإنسانية في القرآن

إن توجيهات القرآن الكريم تدعو إلى بناء الإنسان من الداخل، قلبه ومشاعره وإرادته ، حتى إذا استقام حاله على توازن واعتدال واستقر على هدى من الله ، استطاع أن يواجه المصاعب والأزمات وما يتعرض له من أمور الدنيا من غنى أو فقر أو صحة ومرض وغير ذلك .

هذه الشخصية التي يريدّها القرآن هي التي لا تفرح بطراً إذا حصلت على ما تريد من متاع الدنيا كما فرح قارون بأمواله المكسدة جهلاً منه بسنن الله في أمثاله ، ولا تحزن حزناً محبطاً وتقعّد ملومة محسورة إذا فقدت ما تملكه أو ما تسعى إليه ، ولا يصيبها الغرور إذا أمسكت بمقاليد الأمور ، ولا تقبل الدنية والهوان إذا واجهت صعاب الحياة . قال تعالى : { ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور * ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير } هود/ 9 - 11 . قال المفسرون : الرحمة هنا هي جميع ما ينتفع به الإنسان أويحتاجه من أموره الدنيوية ، وكفور تعني أنه كافر بالنعمة ، والنعمة هي الصحة والمال ونحو ذلك ، وقول الإنسان (ذهب السيئات عني) تعني أن ذهاب السيئات جاء هكذا عرضاً أو لأسباب هو فعلها أو لاعتقادات فاسدة يعتقدّها ، أي أن ذهابها - حسب كفرانه - ليس بإنعام وفضل من الله .

إن فحوى الآيات يشير إلى أن هذا الخُلق هو من طبيعة الإنسان ولايستثنى من ذلك إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، هؤلاء الذين تربوا من خلال الدين على تحمل المكاره وشكر النعماء ، وما حملهم على ذلك إلا حب الله والايان باليوم الآخر .

يدعو القرآن الكريم المسلم أن يكون شخصية قوية صلبة لا ترزعزع الخطوب ولا ينكسر أمام الحوادث فيجلس محطماً لا يهتدي سبيلاً ، قال تعالى : { إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون } فصلت / 30 أي لاتخافوا مما تقدمون عليه في أمور حياتكم ولا تحزنوا على ما فاتكم ، لأن مشاعر الحزن والضيق والأسى مشاعر سلبية لا تحل المشكلة .

قال ابن تيمية رحمه الله : ” وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من أحوال الإسلام جزع وناح كما ينوح أهل المصائب ، وهو منهى عن هذا ، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام وأن العاقبة للتقوى ” وحول هذه العاني يقول شاعرنا إقبال :



المؤمنون على عناية ربهم يتوكلون

لا خوف يفزعهم ولا هم في الحوادث يحزنون

ثقة الكريم بنفسه تعلو به فوق الزمن

والحزن سم قاتل لا تشربوا سم الحزن

نعم ، المسلم لا يحزن الحزن السلي الذي يقعه عن العمل ، ويصبح دأبه الشكوى أو الحنين إلى الماضي ولا يقدم شيئاً للحاضر ، ولكن المسلم يحزن الحزن الايجابي الذي هو طول الفكرة الذي يؤدي الى الشعور بالمسؤولية ، ويبعده هذا الحزن عن سفاسف الأمور وعن الترف واللهو ، ويدعوه للغيرة على محارم الله ، وعندئذ يُبشّر ب { **الحمد لله** } الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور رحيم {.

وحول بناء الشخصية الإنسانية السليمة قال تعالى : { ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور } لقمان / 18 . يقول الشيخ الغزالي رحمه الله : ” الخلاء شعور طفولي بالعظمة والفخر ، وحديث المرء عن نفسه أو قومه باعتزاز ينشأ عن الجهل أو الذهول عن حقوق الآخرين ، وفي الإسلام حرب موصولة ضد الاختيال والاستكبار ، قال رسول الله ﷺ ” إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ” وغزارة المعرفة ونفاضة الموهبة ينبغي أن تستر برداء العبودية لله والإحساس بفضله ” (المحاور الخمسة في القرآن الكريم / 206)

هذه التوجيهات القرآنية أوجدت بين المسلمين درجة من **الاعتدال** والتوازن لا يوجد لها نظير في أي بقعة من بقاع العالم ، لقد علمت المسلمين أن يواجهوا صعب الحياة ويتحملوا قيودها بلا شكوى ولا ملل ، ودعتهم لأن يكونوا أقوياء على الدوام .